

نَيْبَةُ الْحَدَاثَةِ

فِرَاءُهُ فِي كِتَابِ السُّوْبِرْ حَدَاثَةِ حَسَنِ عَجْمَى

حمو بو شخار *

يقدم الناقد المغربي حمو بو شخار دراسة موضوعية لكتاب "السوبر حداثة" الصادر عن دار بيisan، ٢٠٠٥، بيروت.

ويوضح كيف أن السوبر حداثة تحاول الخروج من الحداثة وما بعد الحداثة. فالفكرة الأساسية لدى حسن عجمي مؤلف "السوبر حداثة" هي أن اللامحدود يحكم الكون ورغم ذلك من الممكن معرفته؛ فمن خلال لا محدودية الوجود نتمكن من تفسيره. على هذا الأساس يدعو الباحث اللبناني حسن عجمي إلى دراسة الأكوان الممكنة كما يشير الناقد حمو بو شخار.

فإذا ما نظرنا إلى الأكوان الممكنة مجتمعة ستبدو لنا أنها غير محددة الحقيقة، ولذا كان من الطبيعي الاعتماد على مفاهيم ما بعد الحداثة كمفهوم اللامحدود من أجل الوصول إلى الهدف الأساسي للحداثة ألا وهو المعرفة.

كل تناول للعمل يطرح مواضعات ومواقع ستظل تتजاذب المعنى. يصرّ حسن عجمي^(١) أنه يوجد في أرض مشتركة بين "النص الواقعي والقارئ والكاتب" (ص ٢١٠).

ولكون النص الذي يتشكل في هذه اللحظة غير نهائى بشكل حاسم، فهو كما يقول الكاتب: نص افتراضي.^(٢) يضاف إلى ذلك أن المعنى هو ما لا يقبل التجميع بل والمستعصي عليه؛ لأننا نجهل عنوانه ومكان إقامته، "فمن غير المحدد ما إذا كان المعنى قائماً في النص (الواقعي) أم في الكاتب أم في القارئ".

لكن إذا كان الكاتب لا يتبرأ منه دفعة واحدة (ص ١٠١)، وإذا كان القارئ متربداً فالمراهنة ستكون على الكتاب، ما دام يقدم مغلفاً، لكي يرد مفتوحاً. ولما كان نصه ينهض على غرار الأكوان المتعددة (ص ٢١٤) فمستوياته متعددة بدورها.

من هنا، الطبقات المتوازية التي ستعالى أو تنخفض تموجات متغيرة لكتابة خيبة الحادثة، التي تجد منشأها في شهادته على المحو الضروري لقيام الكتابة، نقرأ: "أشهد أنك تكتبني حين تبدأ في محوّي".^(٣)

مع إنجاز هذه العمليات، يتم تفادي الوقوع في الملل، إذ لا تكرار ولا انتظار أي وعد بالخلاص.

موقع سوبر حادثة:

طريق الحادثة ذاته غير مأمون. ثمة فرق بين اعتبارها إيماناً بإمكانية تأصيل مجموعة معارف (ص ١١) وبين جعل المعرفة هدفها الأساسي (ص ١٢). إذا كان الكشف الما بعد حداثي هو الارتكاب من كل هدف أسمى أوأساسي، سيكون موقع تصور السوبر حادثة في درجة بين الحادثة وما بعد الحادثة. والباحث حسن عجمي يضع مهمة "السوبر حادثة أن تستغل ما بعد الحادثة للوصول إلى أهداف الحادثة.

وعلم الأفكار سيتکفل بتحصيل معرفة بالعوالم الممكنة، والتي يعد عالمنا الواقعي جزءاً منها. ولما كانت الحادثة لا تهتم إلا بهذا الأخير، الأمر الذي يحصرها في دراسة ومعرفة الواقع لا غير (ص ١٢). سيلتقى علم الأفكار في جزء أساسي منه مع أهداف السوبر حادثة، والتي يتعين عليها منذ الآن الخروج عن مفهومي الحادثة وما بعدها. إن الأفكار ستعادل العوالم الممكنة في كتاب السوبر حادثة.

إن علم الأفكار يعفي العالم من التتحقق مما أنجزه الخبرة والتجربة بل يحرره من

قلق السقوط في التناقض (ص ٢١). والوظيفة المعرفية لهذا العلم هي قدرته على توضيح الظواهر والتبيؤ بها. وإذا تحقق صدقها سيعزز مكانته كنظرية علمية، فضلاً عن كونها نظرية فلسفية (ص ١٦).

كتابات علم الأفكار:

بتطبيقه على فكرة اللامحدود س يتم إلغاء كل وصاية يمكن أن تمارس بحجـة اعتمـاد صراـمة معرفـية مزعـومة ليـقونـا إلى ديمـقراـطـية الثقـافـة، التي تمـنـح الحقـ للباحثـ في دراسـة ما هو ممـكـنـ، فيـوسعـ من مجالـ كلـ ممارـسةـ لـلحرـيةـ بعدـمـ تقـيـيدـ أوـ فـرـضـ منـهجـ واحدـ وـوحـيدـ؛ فيـربطـ بنـاءـ أـيـةـ فـكـرةـ بـطـرـيقـةـ تـخـصـهاـ وـحدـهاـ، فـتـعـدـ المـناـهـجـ. نـجـدـ هـنـاـ أنـ "ـالـمـنهـجـ يـنـقـسـمـ إـلـىـ مـناـهـجـ مـخـتـلـفـةـ تـتـنـوـعـ مـعـ تـوـعـ العـوـالـمـ الـمـكـنـةـ الـتـيـ يـرـادـ درـاستـهاـ"ـ (صـ ١٧ـ).

إذا كان التفكير الممكن فصلاً لا يعبأ بالأوثان الفكرية التي نصبت للتقيد بها، إنه تغليق لها والانفتاح على غير المعتقدات التي حضرت بمقررات المدرسة والإذاعة والمساجد. إنه الحق في التفليس وإنشاء نظريات عليمة(ص ١٩).

الحجـة والـدليل لـيـس ضـرورـيـة للـعـبـور إـلـى الـعـرـفـة، كـذـلـك التـحـصـيل لـلـحـكـم أو عـدـمـه عـلـى صـدـقـة نـظـرـيـة. فـالـعـارـفـ نـفـسـهـا مـفـتـقـرـة لـلـكـمالـ، لـجـبـلـها بـنـقـاطـ عـمـيـاءـ. وـسيـبـقـنـ لـلـحـدـسـ نـصـيـبـهـ هـنـا بـمـيـلـ التـفـكـيرـ إـلـى مـلـامـسـةـ الـحـقـيـقـةـ مـنـ بـعـيدـ أوـ قـرـيبـ، وـمـنـ دـوـنـ أـيـ قـهـرـ حـدـودـيـ لـلـحـرـيـةـ لأـجلـ اـزـدـهـارـ الـبـحـثـ.

اعتقاد علم الأفكار يفترض تحبييد منْ يقدم نفسه صادقاً وحقيقة، وإقامته بين "مزدوجتين وتتناساه" قبل أن يفاجئ التاريخ الباحث بالكشف عن زيف النظرية العلمية أو الفلسفية. وإن سعي المزدوجتين هو "مسح الاغتراب"^(٤)، كما يمكن "للخطأ أن يندمج في البداهة ذاتها".^(٥)

تعريف النص:

يكون بالعناصر اللامحدودة فيه (ص ٢٥)، فاللامُحدَّد يقلص من عبء المرجع، إن لم يلغه، حتى تتساوى النصوص معه تخلص من تراتبية أو مركزية ما تضع نفسها فوق كل النصوص. إذا كان النص مفرداً فالرأي الذي ينتجه قادر على أن يصير بدوره نصاً مفرداً. هكذا لا يعود فرق بين النص والرأي^(١).

النص في مرحلة يكون تماماً كالحجر -كافكا-، وما أن يتم ولو جه حتى يبرز اللامحدد، ومن ثم الحاجة إلى تغييره، سواء التشطيب، كإضافة أو تعليقه دفعه. واللامحدد سيكون هذه الإمكانية لتفيير ناجح (ص ٢٧).

في مجال العلوم، مثلاً، سيشرع الباب لتعيش كل النظريات، ما دام أن التدليل على صدق نظرية، مهزوز في نسبة ادعاء الموضوعية. سيأخذ اللامحدد وجه فرضية لا تقوم على المذهب الواقعي ولا اللاواقعي. وهي تقول: "بما أنه من غير المحدد أية نظرية علمية هي الصحيحة، فلا بد من أنه توجد نظريات علمية تتباين بالظواهر المرئية نفسها رغم اختلاف تلك النظريات" (ص ٣٩). ويبقى نجاح؛ كل نظرية شأنًا تاريخيًّا وإلا تحولت إلى اعتقاد؛ لذلك كل نجاح نسبي كما كل فشل (ص ١٣٢).

اللامحدد مع الواقع الاجتماعي، يفاجئ ويباغت، وتكون مسألة التصرف مع اللاحساب ملحمة. وتبقى مسافات غير قابلة للردم بين "الصفة الشريرة" و "الصفة الخيرية" (ص ٤٣) عبارة عن خوض لانتعاش الفوضى (ص ١٣٨).

التفسير بعدي، لحدوثه بعد وقوع الحادثة. والسلسلة المفترضة لهذا الفرض، ليست نهائية وصحيحة؛ لأنَّه سيظهر دوماً من يهاجم ويقدم السلسلة البديل، دون أن يكون بمقدور أحد أن يلغى دواعيه إلى حيث، ريثما تكشف النظرية عن لا محدودها.

الدين ليس مفرداً:

إن تصور اللامحدد كما تحاول السوبر حداة أن تقدمه، والبرهان عليه من خلال تطبيقات وأمثلة توضيحية إلى الإقرار بعدم الإقرار في أي "مذهب هو المذهب الصادق وأي مذهب هو المذهب الكاذب" (ص ٦٢)، ومسألة الشك واليقين، في هذه الحالة، تظهر أنه كما لو كان يستحيل خروج أحد الحدين عن الآخر؛ ليتضمن كل منهما بذرة الآخر، كما قال ج. لكان بخصوص العاقل (ة) الذي لا يحق أن يكون كذلك إلا إذا احتوى بذرة من الجنون.

التارجع بينهما للهروب من الفرض العقدي، سيمنحه لنا اللامحدد، ما دام أننا "نملك حدوساً وحججاً متعارضة".

أن يكتب مارسيل غوشيه، أننا لا نتخلص من الدين أبداً؛ أو أن تم الإجابة عن سؤال: "ما الدين؟ - الدين هو الإجابة".^(٧) فشلة إقرار بالتورط؛ لكون المعتقد كدين، لا يمكن التتحقق من أنه هو الصحيح؛ (ص ٧٠) وغير محدد موضوعياً. وتظل المعتقدات المشتركة (ص ١٥٠) أو المترسخة تعارض بعضها بعضاً؛ أي إكسابها لنا "حق كل فرد في التصرف بحرية (...)" في ممارسة شعائر كفره أو ديانته" (ص ١٥٤).

التصور والوصف والثقاف:

الأشياء في الكون تنهض باللغة وفي الزمن الضروري لكي تكشف نفسها و"اللغة" -

التي - تستخدم مفهوم الأشياء" (ص ٨٠)، تحتاج الزمن لينضج فيه التصور. العبور من لحظة الدهشة أي مما يسميه المؤلف اللغة التي "تستخدم مفهوم الصفات" السياسية؛ بحيث إذا رمنا الاختزال مخافة أن يدركنا النمر الذي "خلف تلك الأشجار، (ص ٧٦). سيكون اللجوء إلى الافتراض، لا مناص منه. العبور من الاختزال إلى الافتراض يكشف الخطر المتخفي وراء عملية المتأفة، ستعد اغتراباً، وبالتالي عقبة يلزم التعامل معها بحذر.

الافتراض الذي لدى هو، تماشياً مع فكرة استغلال الوقت للتعبير عن وجود النمر، حدث اللجوء إلى مرجعية لغوية مغایرة، لكن توجد في نفس سوق المعاملات- كما الحال في شمال أفريقيا- وبدلأ من التبيه بـ - عندك النمر- تم بفعل الخوف نطق تمازيفت - Ghirakaghelyas-. هنا ولو تم التعبير بتصور aghelyas، بما هو فكرة مجردة وأكثر عمومية،^(٨) سيحتاج للغة الصفات، وتكون الكارثة قبل وصول التصور؛ أي قبل أن "أعي أو أدرك مضمون تجربتي" (ص ٧٩).

التجربة التي ينعدم تصورها خارج اللغة؛ لذا ترقب "أن الأشياء كما هي ممنوعة لي من قبل الإدراك مفتوحة بشكل دائم على آفاق غير محددة"^(٩). سيدعم مواصلة الحياة. واختلاف المعتقدات وتناقضها عند الأفراد والجماعات لم تحرم يوماً أحداً من الحياة. ويبقى أنه "من غير المحدد أية مجموعة من المعتقدات هي الصحيحة أو التي تشكل معرفة حقيقة" (ص ٨٦). مع هذا التخريج يجب لا ننسى أن "لكل موجود مبرره" كما ينحو هيدغر^(١٠) الأخذ بهذا المبدأ كقياس يمنعك من فرض تأويل أو معنى محدد على أي كان، كما يمنحك حق أن يرفض، وانتهي.

نحو الماجئ:

المبدأ العام الذي يؤطر الكتاب، منذ البداية: اللاتحديد له مزية إزالة البريق وتعريمة التجهم الذي يرفعه الصوت الصادم، المالك للحقيقة المطلقة. الارتياح يخلق قلقاً. فتتوالد الأسئلة. وانفصال "الضروري الكاذب" (ص ٨٩).

فعالية تصور ما، لا يبقى محدوداً. وخاصةً بمحيط ثقافي معين. لا اختيار هذا التصور، سيتم الرجوع إلى عالمنا لاختيار واقعة حية، سيتهم الوضع اللغوي للأمازيغية في شمال أفريقيا. فهي في رؤوس من جعلوا من المغرب، نسخة ردئية للشرق العربي، لغة ميتة، وبالتالي غير متصرورة في عالمهم. لكن هذه اللغة نفسها، من جهة أخرى، لغة حية عند أهلها، وفي الجغرافيا التي تحيا بها يومياً.

التناقض الذي يظهر سيوجد في الرؤوس المعبأة، لن يقيموا هنا، لترسيم لغة،

الغربيّة في هذه الحالة، تاريخيًّا هي دخيلة. وبدعم قرار سياسي "التعريب لا يمكن أن يكون ممارسة عقلية بالنسبة للمغرب، ولكن تتمة لشيء انطلق من (فتوحات إبادة) والذي لم ينفذ جفافه".⁽¹¹⁾

إذا كانت العبارة صادقة بالضرورة، أي أن تمازيفت حية، كما في أفواه ناطقها، وهو أمر متجسد في أعمال. هل كونها كاذبة بالضرورة، سيجعلني حجة، كما العديد من أهالي شمالي أفريقيا، على كونها ميتة، من خلال اللجوء إلى استعمال لغة أجنبية (العربية....) وليس تمازيفت للتعبير؟ أم أن النص المنتج هو واحد من "أنواع لغوية جديدة" (ص ٨٩) يفريض عن عوالم محتملة، ليس بأعلى ولا بأدنى من أنداده، كما يحدث مع اللوحة النسخة واللوحة الأصل، عندما يضيع التوقيع، وترفع لها نفس إمكانات التأويل؟

لكن "لأنَّا نأخذ اللغة العربية مثلاً لنا، لو أنها موجودة، لم يحدث الخلاف حول كيف يجب أن تكون موجودة، لكن لقد قام هذا الخلاف. من هنا اللغة ليست موجودة. من جهة أخرى اللغة موجودة وإنما ما استطعنا أن نتalking about it" (ص ١٣٧).

اللغات جميعاً، لها وظيفة ثقافية، "ولا تقدم لنا في الواقع إلا بناءات متعددة للواقع" (١٢)، تخلص المجتمعات من عبث (الاغتيال اللسانى).

أداة، إلّا ما بعد، مفتوحة في كتاب حسن عجمي على إلغاء الفرق. لا تراتب بين اللوحة الأصلية والمزورة، لتعذر تحديد ماهية الفن (ص ٩٥)، الشعر (ص ٩٦)، النثر (ص ٩٧)، إن لم ينسحب على كل الأنواع الأدبية (ص ٩٨). و "عدم اختلاف" الأنواع تحدّد للحدود بين الواقع المحروسة في عهود الإقطاع.

المرور، الانتقال، حتى التهريب والتيه سيكون جوازات إلى مرحلة الد ما بعد، التي تهيئ لـ "لقاء اللامرتب".^(١٣)

التحرر من الإقطاع، اقتضى إيجاد دلالات مهمشة وملغية بإعادة الاعتبار لها. فـ"منذ اللحظة التي ينشأ فيها اللاتوازي بين الأستاذ وزواره، ينعدم التساوي أمام الذي هو جمال اليوم، الذي يضعننا جميعاً أمام نفس حالة العوز^(١٥) (*état de dénuement*) الافتقار هنا لا يعني، حمل سلال، واقفقاء الكبار لالتقاط ما تساقط (دوغي). إن بعد المعنى إلغاء لاستبداد المعنى. إنه "المعرفة، عملية بحث مستمرة، ويصبح باستمرار" (ص. ١١٠).

امتداح فضائل التعددية، مع كتاب السوبر حداة، مغربية، تستند على الكثير من الحرية وعلى ضمان حقوق عدة للأفراد في المجتمع؛ (اقتصادي، سياسي، ديني،

العيش (ص ١٧٤) المجتمع إذا كان مدعواً لاحتضان جماعاته (ص ١٥٩) عليه ألا يصير وصياً عليها. ففي الاحتضان حماية وخيمة ستحول دون "تجاوز اليقينيات التي سببها تاريخنا ولغتنا وقوميتنا، التي غالباً ما تمنعنا عن فهم حقيقة الآخرين" (ص ١٦٤).

ما لا يترجم إلا بخيانة:

الدرس الفينولوجي مهم لإرساء توسيع شجرة نسب المفردة، على مستوى الربط الذي يقوم به سيجري؛ لأنه يضيء عتمات، يُسْكِنُ عنها وتهمش في إطار اللغة الواحدة. وهذه المسألة مهمة؛ لأن ما أن يتم الانتقال بها إلى لسان جماعة لغوية أخرى حتى يتبدد كما لو وقع في الثقب الأسود^(١٤). فلو تم نقل نموذج "راح، يروح، رح" (ص ٢٠٢) إلى الفرنسية مثلاً لما استقام أي شيء.

عملية الإرساء التي تمت الإشارة إليها، عملية تهم تأسيس المذهب وترسيخ المعتقد. أما كون اكتساب لغة جديدة فيعني اكتساب اعتقاد جديد (ص ٢٠٣) فمحض دوحة. يكفي التساؤل: بماذا نفسر المسرح الخاص بالحجاب في أوروبا؟ الرد، ينحصر في، أن هؤلاء الناس لم يكتسبوا لغة، ولم يخرجوا من قبيلتهم. وهذا النموذج هو الآخر، في تبيان ما لا يترجم، والقائم الوجود مع ذلك.

السوبر حداثة كاختيار:

التفكير^(١٥) الممكن وبناء النص مع حسن عجمي، دعوة للخروج من الدوغماء. وكل أصناف الحضور المستبد، حتى الحداثي باعتماد أدوات ما بعد الحداثة، التي لن يتاخر في الارتداد والتخلّي عنها كلما تبدي فيها أنها تتحوّل إلى التمرکز، كما سيحدث مع المعرفة التي كان مصدرها، المجتمع والسلطة (ص ٢٢٧) لاختيار الذي رامته السوبر حداثة، هو كون المعرفة هي دون مصدر أو توجد في استقلال عن العالم المادي.

إذا كان هناك من تأثير لها سيكون على غرار الثقب الأسود، الذي يفترض فيه أن يكون عبارة عن منطقة خالية حيث يتحطم القانون والطبيعة داخلها. ولا شيء يدخل الثقب إلا وتبدد^(١٦) Vanishes، بهذا سيدشن للعبور إلى الممكن من علم الأفكار كما سطر العنوان الفرعى للكتاب. بعد أن وجدت تجسيداً لها في: بيان ما بعد المفاهيم^(١٧).

هوامش:

- (١) - حسن عجمي، السوبر حداة، بيسان ط١، ٢٠٠٥. الأرقام داخل النص إحالة على هذه الطبعة.
- (٢) - يعرف النص الافتراضي بـ "لا بد من بنائه من خلال الاعتماد على النص القائم على الورق وبالاستعانة بما يفهم القارئ منه وما يقصد الكاتب به" ص ٢١١.
- (٣) - حسن عجمي، وحي اللغة (بيان اللامعنى)، دار النضال، ط١، ٢٠٠٣، ص ٢٥١.
- (٤) - ليونار : PUF, 1995, P. 40 . La phénomologie,
- (٥) - مصدر نفسه، ص ٢٨.
- (٦) _ M. Talbi: Réflexion d'un musulman cortem porain, Fennec, 2005, P.39.
- (٧) - دريدا وج. فاتيمو: الدين في عالمنا، توبقال، ص ٢٥.
- (٨) _ Armand Cuvillier: Nouveau vocabulaire philosophique ، A. Colin,1966, (le concept).
- (٩) _ J.F. Lyotard, ibid.I 21.
- (١٠) _ Tout existent a sa raison, I.
- (١١) _ Banhakeia. Hassan _de la politique de la langue à la constitution de Tamazight (2, partie_ Tawiza, Uttun, 100, Tamut, 2005.
- (١٢) _ Benveniste: P.L.G.II, cérès,1995, P.66.
- (١٣) _ Derrida.J.in: Heidegger en France, A.Michel, 2001, p.116.
- (١٤) _ Michel Deguy, ibid, p. 86.
- (١٥) _ Hassan Ajami: Super Modernism, Bissan, 2005, P.15.
- (١٦) - م. خريف، القدس العربي، عدد ١٦ ع ٤٩١٧ مارس ٢٠٠٥ .
- (١٧) - Hassan Ajami, ibid, p.15.
- (١٨) - حسن عجمي، وحي اللغة، ص ٧٦.